

Amr Abd al -Aziz Moneer**

عمرو عبد العزيز منير*

نحن والآخر وصراع الهوية في السير الشعبية العربية

الصراع الإسلامي البيزنطي في السير الشعبية العربية

Us and Them: The Conflict of Identity in Arabic Popular Folktales
The Byzantine -Muslim Conflict in the Arabic Legends

ملخص: تهتم الدراسة بالقراءة الشعبية لحدثٍ مهم يتمثل في الصراع الإسلامي البيزنطي أثناء الفتح الإسلامي لمصر في ضوء المصادر الأدبية ممثلة في السير الشعبية العربية، وما تشتمل عليه من قراءة شعبية للحدث، كونها قراءةً مراقبةً من خارج المشهد التاريخي لأنها قراءة المجتمع للحدث، وليست قراءة الفاعلين. نحاول في هذه الدراسة الاقتراب منه ورصد أبعاده والتعرّف إلى أي حد كان تأثيره في المخيلة الشعبية، وإلى أي مدى يمكن للسير الشعبية أن ترصد لنا قراءةً مغايرةً للمصادر التقليدية. لم تهتم الذهنية الشعبية كثيرًا بحقائق الحوادث والأماكن والشخصيات التاريخية والتتابع الزمني في سياقها التاريخي الفعلي، وإنما وظفت ذلك كله في خدمة هدفها الفني بمضامينه الاجتماعية/ الثقافية، بحيث تبرز دور العامة في إعادة تشكيل تاريخهم.

الكلمات المفتاحية: القراءة الشعبية، الفتح الإسلامي، الصورة الذهنية، الصراع البيزنطي

Abstract: This paper concerns the popular interpretation of the struggle between Islam and Byzantium during the period of Islamic conquest of Egypt, as reflected in the literary sources comprising the Arab folk epics and the popular interpretation of that event. The study attempts to observe its dimensions and gauge the extent of its effect on the popular imagination and to what extent the popular epics provide us with a different interpretation of the traditional sources. The popular mentality was little interested in the facts of the events, places, and historical characters, and the chronology of events in their real historical context. Rather, it made use of all of these things to serve its artistic goal with its social/cultural content, since this gave prominence to the role of the ordinary people in shaping their history.

Keywords: Popular Interpretation, Islamic Conquest, Mental Image, Byzantine Conflict

* مدرس تاريخ العصور الوسطى في كلية الآداب، جامعة جنوب الوادي، مصر.

** Lecturer of Medieval History at the Faculty of Arts, University of the South Valley, Egypt.

مقدمة

تعددت البحوث الأكاديمية التي كُتبت حول الصراع الإسلامي البيزنطي الذي دام من 628هـ/8 حتى فتح القسطنطينية في 857هـ/1453م، ولم يكن الأمر حكراً على الكتابات التاريخية فقط، وإنما اجتذب ذلك الصراع الكتاب من مختلف الاتجاهات⁽¹⁾. ويتناول البحث جانباً قلماً تعرّض له الباحثون بخاصة باللغة العربية، وهو صورة الصراع البيزنطي الإسلامي وصداه في الملاحم العربية، مع التركيز بخاصة على الفتح الإسلامي لمصر إضافةً إلى البعد الديني وارتباطه بالجدل الإسلامي البيزنطي، بوصفه نظرةً جديدةً لمحور جديد من محاور الصدام الحضاري والديني والعسكري بين بيزنطة والعالم الإسلامي في العصور الوسطى.

اخترت سيرة فتوح مصر المحروسة، ومقارنتها مع سيرة فتوح البهنسا الغراء لأنهما على عكس الملاحم العربية الأخرى، يدور محورهما الأساسي وبعدهما الزمني والمكاني حول دائرة المعارك الإسلامية البيزنطية على مناطق النفوذ بين الجانبين، لتشير الدراسة إشكالاً مفاده: إلى أي مدى يمكن الوثوق بالقراءة الشعبية⁽²⁾ لحدثٍ مهم يتمثل في الصراع الإسلامي البيزنطي أثناء الفتح الإسلامي لمصر في ضوء المصادر الأدبية ممثلةً في السير الشعبية العربية، نحاول الاقتراب منه ورصد أبعاده بطريقة تختلف عما اعتدنا الوصول إليه ومدى تأثيره في المخيلة الشعبية؟ وإلى أي مدى يمكن للسير الشعبية أن ترصد لنا قراءةً للحدث مغايرةً للمصادر التقليدية؟

تكمن أهمية الإشكال في مساعدتنا على تتبّع درجة تأثر المخيال الشعبي بالحدث السياسي، وما علق بالذهنية الشعبية من الصراع، وكيف تناولته من منظورها البسيط والعميق في آن واحد، وإلى أي حدٍ يمكن اعتماد السير الشعبية مصدرًا للحدث التاريخي. وبناءً عليه، تجعلنا هذه الصورة بدقة تفاصيلها وشحنتها الدينية ذات النكهة الخاصة، نرى قراءةً ليس لها نظير في القراءة الرسمية، وتحمل إلينا صوت الناس وهي في موقع المراقب وليس الفاعل التاريخي.

كما تجدر الإشارة إلى أنني كثيراً ما كنت أتساءل عن سر خلوّ مدّة الفتح الإسلامي لمصر من قصص شعبية تسجل البطولات والمعارك التي خاضها أصحاب الدعوة الجديدة، وهم يواجهون في مصر أهم معاقل الروم⁽³⁾ (بيزنطة) ثانية القوتين العالميتين اللتين كانتا تسيطران على العالم المعروف آنذاك.

(1) الأمين أبو سعدة، «بيزنطة في الملاحم العربية»، في: دراسات في تاريخ العصور الوسطى، حاتم الطحاوي (محرر)، (القاهرة: دار عين، 2003)، ص 275.

(2) قاسم عبده قاسم، «السيرة الشعبية مصدرًا لدراسة التاريخ الاجتماعي قراءة في السيرة الظاهرية»، في: بين الأدب والتاريخ (القاهرة: دار الفكر، 1986)، ص 140-141.

(3) «الروم» مصطلح ورد في سورة الروم (القرآن الكريم)، كما في مكاتبة النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى هرقل عظيم الروم، واستخدمته المصادر العربية المبكرة عند الحديث عن البيزنطيين. أما الصليبيون فقد كان المصطلح الأغلب المستخدم في المصادر العربية هو الفرنج والإفرنج. أما في «الأدب الشعبي» فأطلق مصطلح الروم على الصليبيين في حكايات «ألف ليلة وليلة» التي أطلقت مسمى «الروم» على الصليبيين، وإن كانوا يعرفون بالفرنج في المصادر التاريخية العربية التي تناولت الحركة الصليبية على المشرق. ولم يستطع بعض الكتابات الحديثة أن يربط بينهما ظناً منه أنّ الحكايات تتناول «الروم» البيزنطيين، أما سيرة فتوح مصر المحروسة وسيرة فتوح البهنسا فقد تناولتا المصطلح على الآخر المسيحي دون فرق كبير بين البيزنطي والكاثوليكي الغربي، انظر: قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور (القاهرة: دار عين، 1998)، ص 171.

ظلَّ السؤال قائماً عن اختفاء هذا الجهد الشعبي في تسجيل فتح العرب مصر⁽⁴⁾ إلى أن ظهر كتاب سيرة فتوح البهنسا الغراء على أيدي الصحابة والشهداء الذي قدّم الرؤية الشعبية للفتح الإسلامي لصعيد مصر (مصر العليا). ثم تبعه كتاب بعنوان فتوح مِصْرَ المَحْرُوسَةِ عَلَى يَدِ سَيِّدِي عَمْرُو بنِ العَاصِ رَضِيَّ اللّهُ عَنْهُ⁽⁵⁾ الذي يعدّ أول رؤية ورواية شعبية للفتح الإسلامي للوجه البحري (مصر السفلى). ويردّ كل منهما على العديد من التساؤلات. ويقدم الكتابان نصّاً شعبياً يتناول فتح العرب مصر تناولاً يمزج بين الحقيقة والخيال، ليحرراه من قيود التاريخ وصرامته وانطلاقه في رحاب الإبداع الفولكلوري انطلاقاً واضحاً وصریحاً، وهو على كل حال يؤكد أنّ فتوح مصر لم تمرّ على الوعي الشعبي دون استجابة يقطّة وانتباه واع بدور الشعب في تسجيل بطولات هذا الحدث ويساعد في تصور السياق العام للحدث التاريخي ويسد الفجوة الناتجة من عجز المصادر التاريخية التقليدية عن سدّها وبعث الحياة في الهيكل العظمي للحقائق التاريخية الجافة التي تحملها المصادر عن أحداث الفتح وتفصيله.

العنوان الكامل للسير «فُتُوحُ مِصْرَ المَحْرُوسَةِ عَلَى يَدِ سَيِّدِي عَمْرُو بنِ العَاصِ رَضِيَّ اللّهُ عَنْهُ». والعنوان من أهم العتبات الدلالية التي توجه القارئ إلى استكناه مضامين النص الشعبي/ التاريخي وتفكيك شفراته واستكناه محمولاته الدلالية، بما يعطيه من انطباع أولي عن المحتوى⁽⁶⁾. والواضح من عنوان السيرة أنّ البطولة في هذا العمل مقصودة للمكان، وهو مصر، فهي المعنية بهذا الكتاب وهي محوره، وذكر حكاياتها مع الفتح الإسلامي.

نسب الكتاب إلى مؤلّفين هما الواقدي (130هـ - 207هـ)، ومحمد بن إسحق الأموي⁽⁷⁾. ومن خلال مناقشة الجوانب المختلفة المتعلقة بإشكالية المؤلف، ولغة السيرة ومصطلحاتها، نخلص إلى عدم نسبة سيرة «فُتُوحُ مِصْرَ المَحْرُوسَةِ عَلَى يَدِ سَيِّدِي عَمْرُو بنِ العَاصِ رَضِيَّ اللّهُ عَنْهُ» إلى الواقدي لأسباب منها أنّ طبعة كتاب «فتوح الشام»⁽⁸⁾ التي وردت فيها أخبار عن فتوح مصر والبهنسا اقتضت على ذكر فتح العرب صعيد مصر ولم تتطرق إلى الإسكندرية أو دمياط أو شمال الدلتا، كما أنّ النص المتعلق بفتوح البهنسا حوله العديد من الشكوك تعضدها الشواهد؛ منها أنّه قد ورد فيه أسماء لأماكن عديدة في صعيد مصر بمسميات لم تكن قد استحدثت زمن الواقدي (ت. 207هـ / 822م)، إذ نجد عند الواقدي ذكراً لـ «قرية الجرّوس» في فتوح الشام، ثم في سيرة فتوح البهنسا. وهذا الاسم للقريّة لم يكن قد أطلق عليها إلا لاحقاً. إضافةً إلى استشهاد الراوي في سيرتي البهنسا وفتوح مصر بأقوال لابن خلكان (ت. 671هـ) وإن أخطأ في ذكر عنوان كتابه المنسوب إلى ابن كثير «البداية والنهاية»⁽⁹⁾. والشواهد عديدة

(4) للمزيد راجع: ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، ط 2 (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1964)، ص 240-288.

(5) سيرتان شعبيتان ترويان الفتح الإسلامي لمصر قمت بتحقيقهما، نشرت الأولى في القاهرة 2012، والثانية في 2016.

(6) أحمد فرشوخ، جمالية النص الروائي، مقارنة تحليلية لرواية «العبدة النسيان» (الرباط: دار الأمان للنشر والتوزيع، 1996)، ص 22؛ محمد فكري الجزار، العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبي، سلسلة دراسات أدبية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998)، ص 8.

(7) نجد محاولة من الراوي للخلط بين اسم محمد بن إسحق الأموي ومحمد بن إسحاق بن يسار المدني الذي عُرف باهتمامه البالغ بعلم المغازي.

(8) أبو عبد الله الواقدي، فتوح الشام، ج 2 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ص 32-87، 198-292.

(9) مجهول، سيرة فتوح البهنسا الغراء، تحقيق عمرو عبد العزيز منير، سلسلة الجوائز (القاهرة: هيئة قصور الثقافة، 2012)، ص 143.

حول عدم نسبة السيرة للواقدي بما فيها الجزء المتعلق بفتوح الصعيد والبهنسا. وفي ظني وتقديري أنه مجهول؛ فمن خصائص الرواية الشعبية أنها تتكون من طبقات أدبية تشبه تلك الطبقات الجيولوجية، إذ يتناقلها الرواة شفاهاً، فكانوا يعدّلون ويزيدون باستمرار أو يحذفون من الرواية الأصلية تلبيةً لحاجة جمهور المستمعين، حتى تم تسجيل الرواية في أحد أشكالها على صفحات النسخ المتعددة للكتاب المخطوط الذي لم يلبث أن طُبع منه عدة نسخ تكشف كل طبعة عن صحة ما ذهبنا إليه. الأمر الذي يدعونا دون حذر شديد إلى التحقق من عدم نسبة الكتاب للواقدي (130هـ/747م - 207هـ/822م)، إذ كان من الأخرى أن ترد أسماء الأماكن بمسمياتها التي كانت عليها في حياته. فضلاً عن نقل راوي سيرة فتوح مصر أيضاً العديد من النقول عن الواقدي وعمّن سمّاه بأبي إسحاق الأموي مستهلاً بقوله: «قال الواقدي رحمه الله تعالى»، أو «قال محمد بن إسحاق الأموي رحمه الله»⁽¹⁰⁾.

وتستمد هذه السيرة أهميتها من اختلافها عن باقي السير والملاحم العربية الأخرى؛ يدور محورها الأساسي وبعدها الزماني والمكاني حول دائرة المعارك الإسلامية البيزنطية في شمال مصر⁽¹¹⁾، كما أنها سيرة قصصية وتاريخية تكاد تكون مجهولةً عند كثير من الباحثين في التاريخ والآداب الشعبية الذين لم يلتفتوا إليها، ولم يدققوا نصوصها، ولم يبحثوا موضوعها باستفاضة؛ لتشعب أحداث السيرة وتعقدها. وإذا حكمنا بعدد عناوين المخطوطات⁽¹²⁾ والروايات المختلفة للرواية التي بقيت من الكتاب بعناوينه المتعددة؛ «فتوح مصر المحروسة»⁽¹³⁾ أو «فتوح مصر وأعمالها»⁽¹⁴⁾، أو «فتوح مصر والفيوم والإسكندرية ودمياط وغيرها من الجزائر والبلاد»⁽¹⁵⁾، يمكن القول: إن صاحبها كان مؤلفاً شعبياً، وقد مال نفرٌ من الدارسين إلى معالجة تحفته السردية بوصفها عملاً في التاريخ لا قصة تاريخية⁽¹⁶⁾. وعلى الرغم من أن الأستاذ هنريك آرند همقر نشر هذه السيرة بروايةٍ مشابهة سنة 1825 بعنوان «كتاب فتوح مصر والإسكندرية»⁽¹⁷⁾، ونسبها إلى أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني وعدّها

(10) مجهول، كتاب فتوح مصر المحروسة على يد سيدي عمرو بن العاص، مخطوط في دار الكتب والوثائق القومية في القاهرة، رقم 110 الحسيني، ق 4، 12، 19.

(11) تشترك سيرة الأميرة ذات الهمة مع سيرة فتوح البهنسا في فكرة الصراع البيزنطي الإسلامي.

(12) في مكتبة أحمد الثالث توجد مخطوطة يرجع تاريخ نسخها إلى القرن التاسع الهجري (899هـ/1478م) برقم (أحمد الثالث 2890)، منسوبة إلى الواقدي بعنوان «فتوح مصر».

(13) مخطوطة بعنوان «كتاب فتوح مصر المحروسة على يد سيدي عمرو بن العاص» متاحة في دار الكتب والوثائق المصرية برقم 100 الحسيني).

(14) مخطوط مصور بدار الكتب في القاهرة برقم 1058 تاريخ تيمور؛ ومخطوط آخر بعنوان «هذا كتاب فتوح مصر وأعمالها للشيخ الإمام ابن إسحاق الأموي نفعنا الله به وبركاته في الدنيا والآخرة أمين» متاح بدار الكتب والوثائق المصرية برقم (1420 زكية).

(15) مخطوط بعنوان: «فتوح مصر والفيوم والإسكندرية ودمياط وغيرهم من الجزائر والبلاد تأليف العالم العلامة الواقدي رضي الله عنه وأرضاه»، دار الكتب والوثائق المصرية، رقم 1784 تاريخ تيمور.

(16) حول أبعاد العلاقة بين التاريخ والقصة التاريخية، راجع: روبرت إروين، «ابن زنبيل وقصة التاريخ»، في: الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى، آفاق المسلم، جوليا براي (محرر)، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2015)، ص 26 وما بعدها.

(17) نشرها هنريك آرند همقر في ليدن سنة 1825 برواية مختلفة بعنوان «فتوح مصر والإسكندرية» المنسوب إلى المؤلف الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني، انظر: مجهول، فتوح مصر والإسكندرية (منسوب إلى أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني)، تحقيق هنريك آرند همقر (ليدن: د. ن.، 1825).

مصدرًا أصيلًا ومهمًا من مصادر التاريخ التي تروي قصة الفتح الإسلامي لمصر، فإننا لا نتفق معه في الشطر الأول من رؤيته، بينما نوافقه الرأي على أنه يدخل ضمن «القصة التاريخية»⁽¹⁸⁾؛ إذ كان النص مُلهمًا لألفريد بتلر في كتابه «فتح العرب لمصر» ووضعه في مقدمة الكتب المهمة التي استفاد منها في تأليفه كتابه عن الفتح. وأشار بتلر إلى هذا الكتاب الذي نحن بصده وأكد أنه منسوب إلى الواقدي: «وأما تلك الكتب التي تحمل اسمه مثل كتاب (فتوح مصر) فإنها تُنسب إليه خطأ ولكنها في العادة تذكر منسوبةً إلى اسمه تسهياً في القول بدل أن يُقال إنها تأليف المدعي بأنه الواقدي»⁽¹⁹⁾.

تفصح القراءة الأولى للسيرة عن وظيفة هذه النوعية من السير لدى شريحة عريضة من الجمهور؛ إذ كانت محلاً للرواية الشفاهية على نطاق واسع⁽²⁰⁾؛ تلبيةً لحاجة اجتماعية مثل: تأكيد حق القبائل وأحفاد من شاركوا في الفتوح بعد أن شعر أحفاد الفاتحين الأصليين أنهم مهمشون ومستبعدون عما كانوا يرون أنها مكافآتهم العادلة⁽²¹⁾، أو تلبيةً لحاجة ثقافية عند الجمهور الذي كان تواقًا إلى معرفة وقائع النهاية والبداية: نهاية الروم المسيحيين (البيزنطيين) في مصر وبداية العرب المسلمين، وزاد الرواة فيها، بل اختلقوا فيها لخدمة أغراضهم تبريرًا لمزاعم الحق في الحصول على الرواتب. وباختصار، فقد تم حفظ قصص الفتوح، ليس بسبب الاهتمام بإنتاج سرد تاريخي واضح فقط، ولكن أيضًا لأنه كان هناك شعور بأن ذلك أمر مفيد، ومن ثم فإن المادة التي لم تكن مفيدة، مثل التأريخ التتابعي المضبوط للأحداث كانت تُلقى في زوايا النسيان⁽²²⁾. وأبدى الرواة اهتمامًا ببعض جوانب الفتوح، وكانوا أقل اهتمامًا بجوانب أخرى قد تبدو في عيوننا اليوم أكثر أهمية⁽²³⁾.

في الوقت نفسه، من غير المقبول علميًا أو منهجيًا المقارنة بين نص هذا الكتاب «فتوح مصر المحروسة» ونص كتاب «فتوح مصر وأخبارها» لابن عبد الحكم، على الرغم من أن النصين يدوران حول حدث تاريخي واحد، هو سقوط الحكم البيزنطي وبداية الحكم الإسلامي، بعد الصدام العسكري والسياسي بينهما؛ إذ إن كلا من الكتائين ينتمي إلى نمط من الكتابة يختلف عن النمط الذي ينتمي إليه الكتاب الآخر. كما كان ابن عبد الحكم مؤرخًا مهمته أن يبحث عن الحقيقة ويسجلها وإن تسرب إلى روايته بعض الحكايات الشعبية⁽²⁴⁾ ولكنها في أغلبها اقتصرت على ما يتعلق بفصائل مصر وتاريخها القديم⁽²⁵⁾.

(18) إروين، ص 69.

(19) بتلر، ص 23.

(20) أنكر ابن الحاج في المدخل إلى الشرع الشريف وغيره من رجال الدين هذه القصص التي كانت تُروى للعامة، للمزيد انظر: ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، ج 4 (القاهرة: دار التراث، د.ت.)، ص 80؛ محمد بن محمد بن أحمد بن الأخوة، معالم القرية في طلب الحسبة، تحقيق إبراهيم شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001)، ص 190.

(21) هيو كينيدي، الفتوح الإسلامية كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه، ترجمة قاسم عبده قاسم (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2015)، ص 39-40.

(22) المرجع نفسه، ص 26.

(23) المرجع نفسه، ص 40.

(24) إبراهيم أحمد العدوي، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1963)، ص 69.

(25) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق علي عمر (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2004)، ص 28 وما بعدها.

كان الراوي في «فتوح مصر المحروسة» يدخل إلى تاريخ الفتح الإسلامي لمصر من بوابات الخيال والحبكة الدرامية الواضحة في روايته⁽²⁶⁾؛ إذ يحفل كتاب «فتوح مصر المحروسة» بأمثلة عديدة لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة من صفحات الكتاب؛ بحيث نجد الراوي ينسج في خياله أجواء المداومات التي تتم في المعسكر البيزنطي أو في قصر المقوقس، وطرق اختيار الرسل والتراجمة والوقوع في غرام الأبطال المحاربين المسلمين أو التعاطف معهم، ويختلق الحوار الذي دار بين الملكة أرمأنوس⁽²⁷⁾ ورسول المسلمين أو بينها وبين جنودها أو الحَاجب ثَمِيلاطوس⁽²⁸⁾.

إضافةً إلى انشغال الراوي بدور شخصية اختلقها وهي رينا أخت مارية القبطية⁽²⁹⁾ التي ساعدت الجنود المسلمين على فتح دمياط وتحريرهم من الأسر، نجد أنّ الذهنية الشعبية انشغلت بالبحث عن السطور المفقودة في حياة مارية القبطية (التي تسرى بها النبي صلى الله عليه وسلم) وتقب عن الشخصيات الثانوية كي تكتمل الحبكة الدرامية، لتساعدنا على رؤية العناصر التي ظلت عالقةً بالذهنية الشعبية عن مارية القبطية، وعلاقتها بالنبي والتي كانت تحتوي في عناصرها على مسائل شغلت الضمير الجمعي ووجدتها فرصةً لأن يطرحها في إطار رؤيته الشعبية للشخصيات والأحداث في سياق بحثه المستميت عن العناصر المنسية والناقصة والقلقة في الحدث التاريخي⁽³⁰⁾.

أما عن الخلفية التاريخية للملحمة فالواضح أنّ سيرة «فُتُوحِ مِصْرَ المَحْرُوسَةِ» تتشابه تمامًا مع الإطار العام لسيرة «فتوح البهنسا الغراء»، بوصفها قصةً تاريخيةً قُصد بها إذكاء الروح الجهادية في سامعيها، وقد مزج الراوي بين حقائق التاريخ والخيال ليصنع قصةً تتقد بالحماسة والحث على الجهاد. ويرى نوريس أنّ فتوح البهنسا وسيرة عنتر بن شداد تعودان إلى العصور الوسطى⁽³¹⁾، ويشي الأسلوب في كليهما بذلك، وهو ما يصحّ بالضرورة على سيرة «فُتُوحِ مِصْرَ المَحْرُوسَةِ»⁽³²⁾ التي تدور قصتها بصفة أساسية حول فتح مصر والإسكندرية والثغور المصرية المهمة، كدمياط ورشيد وتيس والإسكندرية، وكانت الفكرة العامة واضحة؛ كان انتصار المسلمين في مصر تعبيرًا عن مشيئة الله ومكافأته لهم لاعتناقهم الإسلام، وكانت هزيمة البيزنطيين كذلك جزءًا من الخطة الربانية، وعقابًا لهم على التوفيق بين وحدانية الله وإيمانهم بالثالوث، وعلى حكمهم الظالم. وتتجلى هذه الفكرة باستمرار في غزارة التبادل بالرسائل أو الخطب بين العمال المسلمين والبيزنطيين⁽³³⁾. ثمة خيط آخر منسوج مع رواية سيرة

(26) قاسم عبده قاسم، واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني نهاية المماليك بين التاريخ والحكي الشعبي (القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث، 2014)، ص 24 - 25 (بتصرف)؛ انظر: فتوح البهنسا.

(27) فتوح مصر المحروسة، ق 13.

(28) المرجع نفسه، ق 13، 14، 15، 16، 17، 18.

(29) المرجع نفسه، ق 11.

(30) محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري (القاهرة: مكتبة الأسرة، 1999)، ص 11؛ عمرو عبد العزيز منير، الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين، ط 2 (القاهرة: سلسلة مكتبة الأسرة، 2012)، ص 122.

(31) ابن الحاج، ج 4، ص 80.

(32) إبراهيم كامل أحمد، «فتوح البهنسا الغراء»، كتاب من كتب المغازي الإسلامية، مجلة الفنون الشعبية، العدد 46 (كانون الثاني/يناير - آذار/مارس 1995)، ص 75، 145.

(33) فتوح مصر المحروسة، ق 78، 79، 80.

فتوح مصر المحروسة، وهو القوى العسكرية الإسلامية والمآثر البطولية، ويعكس بناء الشخصيات الحبكة ويعززها؛ بحيث تجسد الشخصيات الرئيسية: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح والشخصيات الأخرى المساندة لهم في السيرة، الفضيلة الروحية والعسكرية بالتتابع، وتبلغ شجاعة المسلمين وقواتهم قدرًا خياليًا؛ إنهم قلة دائمًا، لكنهم يواسون أنفسهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمآثر البطولية لأسلافهم، العرب لا يخونون ولا يكذبون، والعلاقات بينهم طيبة، ومفعمة بالإحساس بالعدل، وهم نماذج مطلقة للفضيلة، لكنهم قبل كل شيء أتقياء، ويلتزمون بصرامة بالآخرة والثقة بالنصر أو الشهادة، بينما أعداؤهم المسيحيون على العكس تمامًا⁽³⁴⁾. ونجد النبوءات عن قرب ظهور البطل المخلص لمصر؛ وحكايات تشرح وتفسر وتقيم جسراً على الفجوة بين ما حدث بالفعل، والروايات الجزئية للإخباريين والمؤرخين والوثائق (التي تمثل جزءاً من التاريخ ولكنها ليست التاريخ كله). وقد حملت هذه الرؤية الشعبية لأحداث الفتح الإسلامي لمصر⁽³⁵⁾. وتمكننا من قياس درجة تأثير الحدث السياسي في المخيلة الشعبية.

يستهل الراوي سيرته بداية المشاورات والمراسلات بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب حول ضرورة فتح مصر، ولكنه في الطريق يأبى إلا المرور بمحاولة التقرب من الذات، وذلك حين يعرض الراوي ما يجب وما لا يجب من وجهة نظره الدينية في سياق حديثه عن أحد حملة رسالة عمر بن الخطاب، وكيف يجب أن تكون هيئته بوصفه نموذجاً للمسلم، وكيف يوجه عمر بن الخطاب إلى ضرورة التزام الأخلاق الدينية قائلاً: «هَذِهِ الدِّيَابَجَةُ الحَرِيرُ الَّتِي عَلَيْكَ، لِبُسْهَا حَرَامٌ عَلَى الرَّجَالِ»⁽³⁶⁾. فهو ينقل الأخلاقيات الدينية إلى مقام الثقافة، رسالة منه إلى الحاكم والمحكوم لتعطي بُعداً عن مدى تصور الذات وارتباطها الوثيق بالأخلاقيات الدينية، وضرورة العودة إلى الزهد وترك الترف الذي يعيشه مجتمع الراوي. ما يؤيد عمق السيرة الشعبية وغناها الواضح بما يعبر عن حال المجتمع الذي يتلقاها في لحظة تاريخية مأزومة.

ثم يستعرض الراوي بداية سير المعارك التي دارت وقائعها بين العرب والبيزنطيين في مصر السفلى، ويأتي على رسالة من عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب. ولعل الحديث عن هذه الرسالة يذكرنا بما تناوله المؤرخون من أن عمراً أخبر عمرو أنه مرسل إليه كتاباً فإن أدركه قبل دخوله أرض مصر فليعد من حيث أتى، وإن أدركه بعد دخولها فليمض على بركة الله، وأن عمراً قد أدركه هذا الكتاب وهو لا يزال في فلسطين، فلم يقرأه إلا بعد أن تأكد من أنه في أرض مصر⁽³⁷⁾. وبدأ تصاعد أحداث

(34) Paret Ruidi, «Die legendare Futuh - Literatur, ein arabisches Volksepos La poesia epica e la sua formazione.» *Accademia Nazionale dei Lincei, Atti* 139 (1970), pp. 742-743;

انظر: روبرت ج. هولاند، «التاريخ والقصة والتأليف في القرون الأولى من الإسلام»، في: الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى «آفاق المسلم»، جوليا براي (محرر)، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2015)، ص 68 - 69.

(35) قارن السمات المماثلة في سيرة فتوح البهنسا الغراء، وفتوح الشام، للمزيد، انظر: عبد المنعم شميمس، «قصة البهنسا»، مجلة الفنون الشعبية، العدد الأول (1956)، ص 34 - 38؛ كامل أحمد، ص 137 - 145.

(36) فتوح مصر المحروسة، ق 2.

(37) قارن مع رواية: ابن عبد الحكم، ص 77.

السيرة بعد رسالة عمر إلى عامر بن الجراح حين يأذن فيها إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر، ثم نجد تتابع النجدات وانضمام العديد من القادة التاريخيين الذين تم استدعاؤهم من ذمة التاريخ إلى جيش عمرو أبرزهم خالد بن الوليد. ومضت القصة تروي تحركات الجيش العربي لنجد صورة مغايرة لخالد بن الوليد جعلته بطلاً موازياً للبلد الرئيس في السيرة وهو عمرو بن العاص الذي كان له أعداء أشرار قاموا بدور في بناء السيرة وتطور المعارك الحربية، وجعلت لخالد بن الوليد دوراً لا يقل أهمية من حيث جوهر فعله ويتساوى مع الأمير عمرو، ويدعم وجوده على مدى نص السيرة على الرغم من أن الثابت تاريخياً وفاة خالد بن الوليد في الشام في غضون أقل من أربع سنوات من عزله، عام 642م/ 21هـ، ودفن في حمص حيث كان يعيش منذ عُزل.

ولعل وجود خالد في «سيرة فتوح مصر المحروسة» وكذلك وجوده بطلاً رئيساً في «سيرة فتوح البهنسا الغراء» يعدان صدقاً لما علق بأذهان الرواة عن فعال خالد وبطولاته في أرمينية، وانبهارهم بانتصاراته في الشام والعراق حيث تغطى الشعراء بفعله، فوهبهم خالد وأغدق عليهم من ماله، ورسم في مخيلتهم النموذج الأمثل للبلد؛ إنها الذهنية الشعبية التي لا تتغنى بهزائمها، ولكنها تشرّب بأبصارها إلى عصور البطولة العربية الإسلامية تجترها سردياً وملحمياً. إنه الهروب إلى ماضٍ ذهبي، من حاضرٍ جارحٍ محبط، متشردم، منهزم داخلياً وخارجياً على السواء، ومن عدوٍ تاريخي يتربص بها الدوائر سواء أجا من الشرق الفارسي أو التتاري أم جاء من الغرب البيزنطي أو الصليبي⁽³⁸⁾.

وفي ضوء هذا، فإن الذهنية الشعبية تتسم بالصدامية مع أي رقابة تاريخية أو أخلاقية أو أدبية قد تعوق تجسيده بالشكل الأمثل الذي يرنو إليه الوعي والضمير الشعبي. ولذلك، فإن الراوي يأتي بشخصياته وأحداثه من ثنايا التاريخ، ليظهر الفرق جلياً بين القصص الشعبي والتاريخ؛ «فالأول ينشد ما يجب أن يكون، والثاني يفتش عما كان»⁽³⁹⁾؛ فيختار الراوي من التاريخ من يحقق له حلمه/ حلم جمهوره.

ويروي تطلعاته وأمانيه روايةً أدبيةً مستعينةً بالمادة التاريخية ومحملاً إياها هموم الشعب وآماله، ويصبح في حالة تصادم دائمة مع أي حدث تاريخي لا يخدم الفكرة الرئيسة المنشودة. ووسيلته في ذلك خياله، وإيمانه المطلق بعدالة حلمه⁽⁴⁰⁾. وعلى الرغم من أن السيرة الشعبية «فتوح مصر المحروسة» تحقق النصر العسكري الساحق لأبطالها على البيزنطيين، فإن هذا الانتصار/ الحلم يبقى مزيجاً من الواقع التاريخي والخيال القصصي، على نحو ما يعالجه المتخيل السردى أو يراه تعبيراً عن أحلام الضمير الجمعي وآماله⁽⁴¹⁾.

(38) محمد رجب النجار، الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2007)، ص 95.

(39) عبد الحميد يونس، الظاهر ببيرس في القصص الشعبي (القاهرة: دار القلم، د.ت.)، ص 5؛ طلال حرب، بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1999)، ص 11.

(40) يوسف إسماعيل، الرؤية الشعبية في الخطاب الملحمي عند العرب (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004)، ص 126؛ عالي سرحان القرشي، «العلاقة بين الرواية والتاريخ (استنطاق، اختراق، تكوين)»، ضمن أبحاث ملتقى القاهرة الثالث للإبداع الروائي العربي، في: الرواية والتاريخ، ج 2 (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص 11 - 22.

(41) عبد المجيد عابدين، لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده (القاهرة: مطبعة الشكشي، 1964)، ص 122 - 123 (بتصرف).

قدّمت السيرة بعض الأنواع المختلفة للأسلحة المستخدمة في القتال وطرق تعبئة الجيوش، أما أسلحتهم فكانت في معظمها أسلحة القتال المتلاحم، من سيوف ودرق وأعمدة ورماح وكراييج، إلى جانب القسيّ والنشاب للرمي عن بعد، ودبابيس⁽⁴²⁾. وكلّها أسلحة تتفق مع أسلحة تشكيلات المشاة في الجيش البيزنطي المكوّن من فرقٍ تستخدم كعوباً غليظة ومزاريق طويلة وحراباً، مهمتهم مواجهة هجمات الفرسان الثقيلة، بحيث كان في كلّ وحدة مشاة مكونة من ألف رجل مئة جندي مجهزون جيداً إلى جانب أربعمئة من حملة الحراب وثلاثمئة من حملة السهام ومئتين من المشاة الخفيفة سلاحهم المقاليح والمزاريق الصغيرة⁽⁴³⁾.

كما يوضح النشاط الاستخباراتي الحربي الذي قام به جيش العرب ضد البيزنطيين، وما قام به الجيش البيزنطي ضد العرب وآلية تعامل كل منهما مع الآخر، ويعرض لطرق الكمان التي اعتاد البيزنطيون نصبها للعرب⁽⁴⁴⁾، فضلاً عن الأبواب السرية⁽⁴⁵⁾ والطرق المجهولة للعديد من حصون البيزنطيين التي كانت تُستخدم في الأوقات الطارئة⁽⁴⁶⁾. بل إنّ الجواسيس يستطيعون نقل الخطط السرية ومحاورات قادة الروم مع كبار رجال دولتهم، ويجيد هؤلاء الجواسيس اللغة القبطية واليونانية إجادةً تامةً، فقد «كَانُوا يَحْفَظُونَ أَكْثَرَ اللُّغَاتِ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي وَقْتِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا»⁽⁴⁷⁾. كما وردت إشارات عن الدور الدبلوماسي والثقافي الذي قام به التراجمة في مجتمع السيرة وتزايد الحاجة إليهم، وهو ما نجد له صدًى في الواقع التاريخي للمجتمع في العصر المملوكي⁽⁴⁸⁾، إضافةً إلى إشارات تفيد عن مستوى التعليم والاهتمام باللغات الذي كان يتلقاه الأمراء والملوك والسلطين في الواقع التاريخي ومعرفتهم أكثر من لغة⁽⁴⁹⁾.

كما عكست سيرة «فَتْوحُ مِصْرَ المَحْرُوسَةِ» علاقة بلاد النوبة مع مصر في سياق الصراع الإسلامي البيزنطي المتمثلة برابطة الجوار ورباطة الكنيسة، بخاصة بعد إخفاق محاولة عمرو بن العاص سنة 642م فتح النوبة على يد عقبة بن نافع ثم محاولة عبد الله بن أبي السرح وتوالي غارات أهل النوبة على مصر في عصر الإخشيديين والفاطميين إلى أن نشبت الحروب الصليبية لتزيد مظاهر العداء بين مصر ومملكة النوبة المسيحية مهاجمة أسوان سنة 1272م وأسره العديدين من أهل أسوان وعيذاب وتصدي الظاهر بيبرس لهم⁽⁵⁰⁾.

(42) محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي (دمشق: دار الفكر، 1990)، ص 73؛ آدي شير، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، ط 2 (القاهرة: دار العرب للبيئاني، 1988)، ص 60؛ عبد الرؤوف عون، الفن الحربي في صدر الإسلام (القاهرة: دار المعارف، 1961)، ص 154.

(43) جون هالدون، بيزنطة في حرب 600 - 1453م، ترجمة وتعليق فتحي عبد العزيز محمد (الكويت: دار ناشري، 2011)، ص 47.

(44) فتوح مصر المحروسة، ق 16، 69.

(45) المرجع نفسه، ق 56، 62.

(46) عون، ص 145.

(47) فتوح مصر المحروسة، ق 110.

(48) للمزيد، انظر: علي السيد علي، «التراجمة في عصر سلاطين المماليك»، في: علي السيد علي، بحوث في التاريخ الاجتماعي من العصر المملوكي (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2014)، ص 205 - 232.

(49) فتوح مصر المحروسة، ق 15، 16.

(50) المرجع نفسه، ق 41؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001)، ص 124.

وتكاد تتشابه الصورة النمطية للْبَجَاوَة⁽⁵¹⁾ ذوي البشرة السوداء في سيرتي «فتوح مصر المحروسة» و«سيرة فتوح البهنسا الغراء»⁽⁵²⁾. وتوصف الملامح الجسدية للسودان⁽⁵³⁾ وصفاً بشعاً يبدو معه أنّ الراوي يسعى ليكسب تعاطف المتلقي فيندفع مع أبطاله في كيل السباب لهم، ويلحق بهم كل صفات اللعن والكفر ليتحوّل أسود اللون إلى أسود الفعال. واختار الراوي صفاتٍ جسديةً تنسجم مع هذه الفعال، وعمد إلى الخيال الذي يشوه ملامح وجهه، فيجتمع سواد البشرة مع البشاعة الشكلية والخلقية والمبالغة في رسم شفّته، وفيها خزام من نحاس إلى درجة تثير العجب، فحتى قوة العبيد السود التي قد تحمل دلالةً إيجابيةً لحق بها تشبيه منفر لا يتفق وروح الأخوة بين البشر التي دعا إليها الدين الإسلامي، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13).

ويبدو لنا المجتمع الإسلامي في السيرة خاضعاً لنسقه الثقافي العام أكثر من نسقه الديني؛ فقد كان أسيراً لما احتفظت به الذاكرة الجماعية من حروب وعلاقات صدامية مع الأسود الحبشي قبل الإسلام (أبرهة الحبشي)، ثم العلاقات غير الودية بين مصر وبلاد النوبة والحبشة في العصور الوسطى. لهذا تم النظر إلى الأسود بوصفه ذلك الآخر المفرط في مغاييرته للذات العربية لوناً وعرفاً وهيئةً وثقافةً وديناً ولغةً (في وصفه كلامهم بظلمة السودان)، وأمعت المخيلة في تجسيد بطشهم. ومثل هذا التعبير بدا لنا شكلاً من عملية تمثيل الذات واستعراضها أمام نفسها وأمام الآخر وأمام العالم⁽⁵⁴⁾. ويعكس حديث السيرة عن أعداد العبيد السود⁽⁵⁵⁾ حقيقة الواقع في مجتمع العصر المملوكي وما تميز به من كثرة اقتناء السلاطين والأمراء والعامّة العبيد السود، كلٌّ بحسب سعته ومكانته الاجتماعية ومركزه المالي⁽⁵⁶⁾.

وعلى جانب آخر، أوضحت السيرة شعارات الجيش الإسلامي وشاراته⁽⁵⁷⁾ وطرق التواصل بين الجنود في المعارك. والمعروف أنّ الجيش الإسلامي كان يُبنى على أساس قبلي. وكان لهذه القبائل شعار تميز به، ويتعارف به أفرادها وصيحات خاصة يتنادون بها ويتعارفون في الظلام وعند الاختلاط، بحيث تكون عندهم معروفة، وعند غيرهم مجهولةً إضافةً إلى شعارهم العام وهو التكبير⁽⁵⁸⁾ الذي كان شعار كلّ مسلم⁽⁵⁹⁾ والذي يتفق مع الحقائق التاريخية المتعلقة بشعارات المسلمين في معاركهم الحربية.

(51) البَجَاوَة: بفتح الواو، قال الزمخشري: بجاوة أرض بالنوبة، بها إبل فرهة وإليها تنسب الإبل البجاوية منسوبة إلى البجاء، وهم أمم عظيمة بين العرب والحبش والنوبة، والبجاء: قوم سود أشد سواداً من الحبشة، انظر: الحموي: معجم البلدان، 388/4.

(52) فتوح البهنسا، ص 201.

(53) المرجع نفسه، ص 214؛ فتوح مصر المحروسة، ق 43.

(54) نادر كاظم، تمثيلات الآخر، صورة الأسود في المتخيل العربي الوسيط (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004)، ص 47؛ ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010)، ص 241.

(55) فتوح مصر المحروسة، ق 46، 67.

(56) علي السيد علي، «الرعاية الاجتماعية للجواري والعبيد السود في العصر المملوكي»، في: علي، بحوث في التاريخ الاجتماعي من العصر المملوكي، ص 233 - 234.

(57) انظر: فتوح البهنسا، ص 323؛ فتوح مصر المحروسة، ق 50.

(58) المرجع نفسه، ق 52، 56، 57.

(59) الشعار قسمان: شعار فعلي وهو الشارات للفرد والجماعة، وشعار قولي وهو ألفاظ خاصة كانوا يتصاحون بها عند القتال، ويتعارفون بها في المعارك، وتقوم مقام «كلمة السر» في الجيوش الحديثة بحيث يعرف الجندي أخاه، انظر: عون، ص 254 - 255.

وبأسلوب الملاحم العربية يصف حمية القتال وشجاعة الفرسان من الجانبين العربي والبيزنطي. وعلى الرغم من أن المؤرخين المسلمين يعترفون بشجاعة المقاتل «البيزنطي» فإن راوي السيرة ينزع هذه الصفة عن جنود أعدائه، ويمعن في انتقامه منهم ولا يعترف لهم بهذه الشجاعة إلا نادراً ويلحق هذه الصفات بأي قائد يصعب التغلب عليه⁽⁶⁰⁾ في محاولة لإظهار شجاعة المحارب المسلم الذي تصدّى لمواجهة المحاربين الأقوياء في صفوف العدو.

وحين نتأمل صورة المرأة⁽⁶¹⁾ في هذه السيرة الشعبية، نجد صورةً متوازنةً لها كالصوت الذكوري تمامًا، ودورًا لافتًا للنظر تقوم به المرأة من ناحية الكم والكيف معاً⁽⁶²⁾؛ فمن ناحية الكم تزدهم السير الشعبية العربية بنماذج من البطولات النسائية، ومن ناحية الكيف فإن هذه النماذج تتأرجح درجة بطولاتها بين أدنى درجات البطولة حتى أعلاها، وعندها تتساوى مع النماذج البطولية للرجال⁽⁶³⁾. وهو نموذج للمرأة المسلمة البطلة التي تتقن فن القتال وتمارسه من أجل المصلحة التي تحددتها الجماعة، ويرد هذا النموذج كثيرًا في وصف المسلمين عبر تاريخ الإسلام. ونجد دورها البطولي دومًا إلى جانب المقاتلين من العرب⁽⁶⁴⁾.

أما عن صورة المرأة البيزنطية، فإلى جانب تلك الصورة السابقة التي تتجاوز الإطار المألوف، تحشر المرأة ما دامت تعبر عن الآخر في صورة نمطية تبرز التشوه الذي كبّل حياتها، وحاصرها بنظرة دونية، في استجابة من الراوي هنا للنسق الثقافي العربي، فيضع الملكة أرماتوسة⁽⁶⁵⁾ في مرتبة الخيانة والمكر والاحتيال في أشنع صورها حين تحاول الإيقاع بيقنا الذي أسلم، وبقيادة العرب، والدفاع عن بلدها. ويرسم لها الراوي صورة سلبية متأثرًا بالمعتقد الديني وفي الوقت نفسه يعترف بجمال الجوارى الحسان⁽⁶⁶⁾، يقول الراوي: «ومنهن من يضربن على جميع الآلات والغناء»⁽⁶⁷⁾، ويصف ما تتحلى به من زينة وما تمتلكه من جوارٍ وأموال.

لكن من جهة أخرى، نلمس تعاطفًا إنسانيًا مع الآخر المسيحي المسالم حتى لو كان ينتمي إلى الأعداء لا يمنعه من تقديم صورة إيجابية لهم: «رَاهِبٌ مِنْهُمْ كَبِيرٌ خَيْرٌ بِالْأُمُورِ، صَاحِبٌ عِلْمٍ وَعَقْلٍ»⁽⁶⁸⁾،

(60) فتوح مصر المحروسة، ق 91.

(61) فتوح البهنسا، ص 176، 177؛ فتوح مصر المحروسة، ق 71.

(62) حمود، ص 246.

(63) نبيلة إبراهيم، من نماذج البطولة الشعبية في الوعي الشعبي، سلسلة معارف إنسانية، العدد 5 (دبي: ندوة الثقافة والعلوم، 1993)، ص 154.

(64) فتوح البهنسا، ص 388؛ فتوح مصر المحروسة، ق 70 وما بعدها.

(65) المرجع نفسه، ق 31، 32، 33.

(66) Nadia Maria El-Cheikh, «Describing the other to get at the self: Byzantine women in the Arabic sources (8th-11th Centuries)», *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 40, no. 2 (1997), pp. 240-250.

(67) نجد لهنّ نظيرًا في سيرة الأميرة ذات الهمة، انظر على سبيل المثال قصة الأميرة البيزنطية أفتونا التي تجيد الغناء بالعربية، وتستطيع في الوقت نفسه أن تبارز الفرسان: سيرة الأميرة ذات الهمة، ج 1 (بيروت: المكتبة الشعبية، 1981)، ص 297 - 317؛ نقلًا عن: أبو سعدة، هامش 68، ص 302.

(68) فتوح مصر المحروسة، ق 95.

«الرَّاهِب (مَنَاح)، وَكَانَ تَلْمِيزًا لِبَحِيرَةَ الرَّاهِب، وَكَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبِأَنْبِيَاءِهِ»⁽⁶⁹⁾. وجدنا هذه الصورة الإيجابية للراهب في كتب التراث الإسلامي، فكان مثال رجل الدين الذي يقترن الإيمان لديه بالسلوك الإنساني. وهذا ما لمسناه لدى أبي حيان التوحيدي الذي جسّد لنا، عبر كتبه، لحظات مشرقة في الحضارة الإسلامية⁽⁷⁰⁾. إذ يمكننا القول مع تيري هنتش إن التعايش بين الإسلام والمسيحية يمثل جزءاً من الإرث في الفكر الإسلامي⁽⁷¹⁾.

ويصف الراوي أيضاً أساليب المعاملة الكريمة من العرب للأسرى على الرغم من رغبة بعض الجنود في الفتك بهم، إذ نهرهم القادة عن هذا الإثم في أكثر من موضع من مواضع السيرة⁽⁷²⁾. إضافة إلى تنوع الأسرى وكثرتهم في مجتمع السيرة: «وَالْأَسْرَى قَرِيبٌ مِنَ الْأَلْفَيْنِ»⁽⁷³⁾، وإسلام بعضهم وبقاء البعض على دينه⁽⁷⁴⁾. نجد في المصادر التاريخية شواهد عدة تحدثت عن الفترات السابقة لحكم المماليك وعن وجود سجن للأسرى من الفرنج والذين ذابوا وسط المجتمع المصري نتيجة لإسلام كثير منهم⁽⁷⁵⁾.

ويستمر الراوي في وصف التلاقي بين الجانبين وظهور الأبطال. ويوضح أخلاقيات الجيش الإسلامي في الحرب والتزام عدم التعرض للكنايس والأديرة والنساء والأطفال والشيوخ والرهبان، وهو ما يميز هذه السيرة التي بدت مخلصاً للواقع المعيش في بعض وجوهها، إذ لا نجد البيزنطيين وحدهم يقعون في الأسر، بل وجدنا المسلمين يقعون في الأسر أيضاً⁽⁷⁶⁾.

يستحضر الراوي مشاهد الصراع الإسلامي البيزنطي، مستشهداً بالمواقف الحاسمة والهزائم التي ألحقتها الجيوش الإسلامية بقوات الإمبراطورية «البيزنطية/ المسيحية»، في معركة اليرموك⁽⁷⁷⁾ (13هـ/636م)، وهو استحضار للحظة حضارية تحطم المسافة الوهمية بين العقل والمشاعر ووهن الواقع. لنقرأ ما يمكن أن نسميه بالتاريخ الوجداني لهذه الفترة.

كما ركّزت السيرة في أكثر من مشهد في الجدل الديني بين المسلمين والبيزنطيين/ الروم، لنلمح على امتداد السيرة كثيراً من عناصر هذا الجدل والمناظرات الدينية التقليدية، فألوهية المسيح، ونسب الأبوة

(69) المرجع نفسه، ق 142.

(70) انظر: أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق إبراهيم كيلاني، مج 3 (دمشق: دار أطلس، د.ت.)؛ حمود، ص 224.

(71) Thierry Hentsch, *L'orient imaginaire: La vision politique occidentale de l'Est mediterraneen* (Paris: editions de minuit, 1988), pp. 103-104.

(72) فتوح مصر المحروسة، ق 77؛ قارن الرواية منقولة بتصرف عن فتوح الشام المنسوب للواقدي، ج 2، ص 71.

(73) فتوح مصر المحروسة، ق 47.

(74) المرجع نفسه، ق 106، 107.

(75) علي السيد علي، «دور الأسرى الأجانب في المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك»، في: علي، بحوث في التاريخ الاجتماعي من العصر المملوكي، ص 70 وما بعدها.

(76) فتوح مصر المحروسة، ق 61.

(77) المرجع نفسه، ق 15.

لله مع إنكارها للبطلوس أو البطريق تكاد تتشابه مع مناظرات أبي بكر بن الطيب المعروف بالباقلاني (ت. 403هـ/1013م) مع رجال الدين البيزنطيين⁽⁷⁸⁾.

ونجد أنّ الراوي (صوت الضمير الحي للمجتمع) يُلّم بعض عناصر الجدل الإسلامي البيزنطي وفرعياته؛ فمعظم النقاط المحورية في الكتابات الإسلامية الجدلية ضد بيزنطة تظهر متفرقة في أجزاء كثيرة من السيرة، وتكاد تكون أهم هذه النقاط في السيرة وفي الجدل الإسلامي البيزنطي أيضاً هي مشكلة تأليه المسيح؛ فالراوي يعرض عرضاً متكرراً وجهة النظر الإسلامية في تأليه المسيح ومكانته⁽⁷⁹⁾ والاختلاف المذهبي⁽⁸⁰⁾ بين اليعاقبة والنسطوريين⁽⁸¹⁾.

أمّا في ميدان القتال فإنّ الهوية الدينية والحرص الشديد على التمييز بين المسلمين والمسيحيين يبدو أن جليين في كلّ وصف تقريباً للمعارك الحربية؛ فالتهليل والتكبير والأعلام والرايات المحمدية هي علامات الجيش الإسلامي، أما الصليبان الذهبية والدروع والدرق وما تطلق عليه السيرة «طمطمة الروم» فتصاحب الجيوش البيزنطية بضخامتها وتعدد العناصر المشاركة فيها والمساعدة لها⁽⁸²⁾.

وتحظى الطقوس والعادات المسيحية عامةً باهتمام خاص من مؤلف السيرة، فهو يصف عاداتهم في الملابس والمأكّل والصلاة والصيام والزواج والتطهرّ والمواريث والمجالس الخاصة بهم⁽⁸³⁾، ونظامهم الكنسي وطبقات رجال الدين الكنسي وتسلسلهم الوظيفي⁽⁸⁴⁾ إضافةً إلى الصورة التقليدية للنقد الإسلامي ضد القسيسين والرهبان بخاصة. ويجمع الراوي عناصر مشتتة من الكتابات الدينية الجدلية العربية، أو لعلّها كانت متداولةً شفويًا بين المسلمين آنذاك، ولا تزال بعض آثارها موجودةً إلى يومنا هذا.

كما أنّ قضية التطهر للصلاة والغسل من الجنابة، وطقوس القداس الكنسي وما يصاحبه من «تناول» كانت من المحاور التي أشار إليها الراوي وأفرغ لها ملاحظات ساخرةً حول الرهبان والقسيسين⁽⁸⁵⁾. وهو ما نجد مثيله في سيرة البهنسا⁽⁸⁶⁾.

أمّا عن صورة الرهبنة والديرية في السيرة، فلعلّ أجمل صورة رسمتها السيرة للآخر هي صورة الراهب المسيحي «الذي أشار على الرهبان بالقبض على القسّ بوليس»⁽⁸⁷⁾. ويبدو إعجابه بشجاعة خالد

(78) محمد الخضيري، المناظرة العجيبة، وقائع مناظرة الإمام الباقلاني للنصارى بحضرة ملكهم (الرياض: دار الوطن للنشر، 2000)، ص 22 - 47.

(79) أبو سعدة، ص 107.

(80) فتوح مصر المحروسة، ق 49.

(81) سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، سلسلة تاريخ المصريين (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993)، ص 51-61.

(82) فتوح مصر المحروسة، ق 1، 44، 52، 104، 105 وما بعدها.

(83) المرجع نفسه، ق 75، 76؛ سيرة فتوح البهنسا، ص 155، 156، 157.

(84) المرجع نفسه، ص 155.

(85) فتوح مصر المحروسة، ق 93.

(86) فتوح البهنسا، ص 314.

(87) فتوح مصر المحروسة، ق 97.

بن الوليد، ويتم فضله حقن دماء المسيحيين والمسلمين، وتزداد الصورة المشرقة وضوحًا حين نرى الرهبان يخرجون للمسلمين «مِن دَيْرِهِم الطَّعام والعُلُوفَة»⁽⁸⁸⁾ ويأكلون ويعلفون خيولهم وينامون في الدير طوال الليل⁽⁸⁹⁾ وهو ما نجده في الواقع التاريخي من مجيء رهبان وادي النظرون إلى عمرو بن العاص، يظهر له الطاعة، وأعطى عهد أمان لهم ولبنيامين فعاد من مخبئه، ودخل الإسكندرية، ووصفه عمرو بن العاص بقوله: «إنني لم أر يومًا في بلد من البلاد التي فتحها الله علينا رجلًا مثل هذا بين رجال الدين»⁽⁹⁰⁾.

لا تخطئ العين النظرة الإسلامية المزدوجة (للاخر) للرهبنة والرهبان التي تراوح بين التقدير والاحترام لمن تفرغوا للعبادة وانفردوا بأنفسهم بعيدًا عن العالم، حتى لو كان ذلك تدينًا في الاتجاه الخاطئ من وجهة النظر الإسلامية⁽⁹¹⁾. ونلاحظ رغبة الراوي المسلم في ممارسة دور الداعية الديني، مما يؤثر في صورة موضوعية للاخر، لهذا عمد إلى عرض الإسلام على الرهبان واستعراضه معجزات النبي الأكرم ليكتمل إيمانهم. وفي الوقت نفسه، هناك العديد من الأمثلة من الرهبان الذين أسلموا أو كانوا مسلمين في الأصل ولكنهم كتموا إسلامهم وعاشوا متخفيين ضمن المجتمع الديرى البيزنطى حتى لا ينكشف سرهم عند مساعدتهم أبطال السيرة في المواقف المختلفة⁽⁹²⁾.

نلمس حرصًا شديدًا لدى البعض الآخر من رهبان مناطق الحدود على عدم التورط في الصراع العسكرى القريب منهم، لتجنب تبعات ذلك، فأصبحت أديرتهم محطات استراحة ودية لمن يمرون بها من المسلمين والبيزنطيين على حدٍ سواء⁽⁹³⁾.

أما داخل بيزنطة نفسها فلم تذكر المصادر إلا القليل من النماذج البيزنطية التي أسلمت أو مالت إلى الإسلام والمسلمين وقامت بدور في الصراع العسكرى بين الجانبين. وتقدم لنا السيرة نموذجًا لهؤلاء البيزنطيين المسلمين عبر صفحاتها وهو «يوقنا» الذي قام بأدوار كثيرة في خدمة الجيش الإسلامى، وتوضح السيرة شك أرماتوسه فيه وفي انتمائه إلى الإسلام والمسلمين⁽⁹⁴⁾. وعلى أرض الواقع التاريخى، فإننا لا نجد نموذجًا يماثل هاتين الشخصيتين، سوى شخصية ساموناس Samonas الخصى البيزنطى ذى الأصل المسلم الذى تروى المصادر البيزنطية أنه حاول تحذير سفير مسلم رشاه الروم لحمل رسالة سرية إلى نائى بيزنطى لاجئ فى بغداد، ثم قبض عليه أثناء محاولته الهرب إلى المسلمين⁽⁹⁵⁾.

(88) المرجع نفسه، ق 50.

(89) المرجع نفسه، ق 97، 98.

(90) بتلر، ص 457.

(91) عن نظرة الإسلام إلى الرهبنة فى الملاحم، انظر: أبو سعده، ص 286؛ وعن نظرة الإسلام إلى الرهبنة، انظر:

Sara Sviri, «Wa rahbābāniyyatun ibtada'ūhā: An analysis of traditions concerning the origin and evaluation of the Christian monasticism,» *Jerusalem Studies in Arabic and Islamic*, vol. 13 (1990) pp. 195-208.

(92) فتوح مصر المحروسة، ص 190، 200، 210.

(93) أبو سعده، ص 287.

(94) فتوح مصر المحروسة، ق 14، 15، 16.

(95) Georgius Monachus, *Chronicon*, C. De Boor (ed.), (Leipzig: Teubner, 1904), pp. 867-868;

أبو سعده، ص 300.

ويعلن الراوي تفوق بعض الرهبان على المؤمنين من ديانات أخرى، وكأننا نلمح هنا تعريضاً بالمسلمين الذين ينتمي إليهم الراوي نفسه. وقد ازدادت صورتهم إشراقاً، حين قاموا بمساعدة خالد بن الوليد في التنكر بملابسهم وصلبانهم ليفتح مصر⁽⁹⁶⁾.

يعكس الراوي الانطباع الإسلامي العام الناقد للفكر الكنسي والرهبنة، وإن كان في الوقت ذاته يوضح المكانة التي كان يتمتع بها رجال الدين المسيحي في المجتمع البيزنطي بصورة عامة، وخضوع الملوك لهم ولرأيهم، وما امتلكته الأديرة والكنائس من ثروات ونفائس⁽⁹⁷⁾ وكذلك العديد من أهل الذمة الذين أحرزوا ثروات هائلة⁽⁹⁸⁾، الأمر الذي لفت نظر محاربي المسلمين⁽⁹⁹⁾.

أضف إلى ذلك الصورة التقليدية لملامح البلاط البيزنطي التي رأها رسل التفاوض بين الجانبين حيث سرادق البطريق أو بطلوس الروم وما فيه من فرش وصلبان ذهبية تلفت نظر كاتب السيرة أكثر من مرة، كأنه يعكس صورة الانبهار بالبيزنطيين⁽¹⁰⁰⁾ وما كانوا عليه من مراسم وزينة وبهاء شاعت أصداؤها في كتب المؤرخين المسلمين⁽¹⁰¹⁾ عن غنائم فتوح بلاد الشام وما غنموه من معاركهم مع الروم، وربما يعكس أيضاً رغبة الوجدان الشعبي في كسر حاجز أسرار الكنائس وما يدور فيها والكشف عن أدق تفاصيلها وما يجري فيها، في محاولة للتعرف إلى الآخر وعاداته في الطقوس الكنسية والجنائزية.

ويفرض رؤيته وشروطه على الآخر الذمّي ويوجّه له رسالةً بالألّا يرفع صوته أثناء قراءة الإنجيل بينما يسمح لنفسه أن يجهر بصوته في قراءة القرآن. إنه صوت القوة المنتصرة التي تريد أن تفرض على الآخر دينها، متخلياً عن الدين.

تبدو لنا الأنا المتفوقة لدى الراوي المسلم مندفعاً لتطبيق تعاليم الإسلام وطقوسه. ومن هنا نجد الآخر غير المسلم يسارع إلى الإيمان بهذا الدين ما إن يسمع بأخلاق أبنائه ويراهما. اللافت للنظر أننا وجدنا مدحاً له في سياق أحداث السيرة وحواراتها المطولة؛ فنجد البطريق أو الحكيم المسيحي يقول عن الدين الإسلامي: «وَإِنَّ الرَّحْمَةَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا فَحَانُوا، وَلَا حَلَفُوا يَمِينًا فَحَنُّوا، وَقَدْ بَلَغَكَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الدِّينِ وَالصِّيَانَةِ وَالصَّدْقِ وَالْأَمَانَةِ»، وبذلك نعيش في السيرة هوية الأنا، فتبدو لنا

(96) فتوح مصر المحروسة، ق 97.

(97) المرجع نفسه، ق 178.

(98) ميكل ونتر، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 2007)، ص 16.

(99) فتوح مصر المحروسة، ق 52.

(100) عن عرش أباطرة بيزنطة انظر وصف شاهد عيان للسفير اللاتيني ليودبراند من كريمونا Liudprand of Cremona الذي سافر إلى القسطنطينية حوالى عام 971م سفيراً للإمبراطور أوتو الأول Otto I (962-973م):

The works of Liudprand of Cremona, F. A. Wright (English trans.), (London: G. Routledge & Sons, 1930) p. 207; Gerard Brett, «The automata in the Byzantine 'Throne of Solomon'», *Speculum*, vol. 29, no. 3 (July 1954), pp. 477, 487.

(101) انظر: أبو محمد البلوي، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1999)، ص 36؛ أبو سعدة، ص 283.

صورتها على حقيقتها بعيدةً عن الزيف والتجميل، وهي تعيش في لحظة تاريخية مأزومة؛ إذ تعاني انحطاطاً في المجالين السياسي والاقتصادي، ولكنها تعيش ازدهاراً ثقافياً.

لم يكن مستغرباً أن تجسّد السيرة «الأنا» العربية الإسلامية في لحظة قهر بسبب ما تعانيه من كوارث وغزو واستبداد، فتبدو مؤرقةً بأمجادها الحضارية التي تسعى لاستردادها عبر الحلم ما دام الواقع محبطاً⁽¹⁰²⁾. لهذا كان عصر الفتوحات الإسلامية أبرز العصور التي شكّلت الفضاء الزمني لسيرتي «فتوح مصر المحروسة» و«فتوح البهنسا الغراء».

وبناءً عليه، فإنّ السيرة مهما استغرقت في حيكته الدرامية التي تبغي حصرها في إطار زمني، لا تستطيع إلا أن تفلت من عقالها وتتناول قضاياها الراهنة وواقعها القريب الذي كان باعثاً في الأساس إلى ظهورها، ونلمس أصداء الواقع في سياق سرد راوي سيرة «فتوح مصر المحروسة» أحداث فتح الثغور المصرية بخاصة ثغر دمياط⁽¹⁰³⁾ الذي كان الهدف الأول للتحالف الصليبي - البيزنطي إضافةً إلى استهداف ثغر الإسكندرية طوال فترة العصور الوسطى⁽¹⁰⁴⁾ من حملات صليبية أشهرها الهجوم الوحشي المفاجئ الذي شتهه بطرس الأول لوزنيان ملك قبرص الصليبي على ثغر الإسكندرية سنة 1365م⁽¹⁰⁵⁾ فأوجد هذا الهجوم روحاً من الكراهية وعدم الثقة المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين، إلى أن استطاعت الاتصالات التي تألفت من الإمبراطورية البيزنطية وملوك أرغونة Aragon وأباطرة الحبشة ذات الطابع السلمي من جانب القوى المسيحية، أن تخفف الاحتقان⁽¹⁰⁶⁾.

ولكن، تشير المصادر التاريخية إلى كثرة اعتداء القراصنة على ميناء الإسكندرية ودمياط في الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك. كما تشير إلى المعاناة التي نجمت عن تلك الحوادث وما حاق بالمدينة من خراب أنتج نوعاً من العجز عن التفسير المنطقي للحدث. وعندما تصادم هذا العجز مع الرغبة في الثأر، لجأ الخيال الشعبي في سيرة «فتوح مصر» ليثأر ثأراً تعويضياً يتوافق مع النفسية وما تعانيه أو تتطلع إليه في أمل. ووجد الخيال الشعبي الحل الذي يلائمه بسرد أحداث فتح دمياط وحشد الأحاديث المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم عن ضرورة المرابطة بدمياط والإسكندرية ورشيد وتنيس وشتا⁽¹⁰⁷⁾ بغض النظر عن المنطق التاريخي.

وعلى عكس المصادر التاريخية التقليدية، فإنّ «سيرة فتوح مصر المحروسة» وسيرة «فتوح البهنسا الغراء» وسيرة «الأميرة ذات الهممة» اتفقت في أنّها تقدّم دوراً فاعلاً للعرب المنتصرة في الصراع

(102) حمود، ص 198، 199، 200، 201 بتصرف.

(103) فتوح مصر المحروسة، ق 107، 108.

(104) William Barron Stevenson, *The Crusaders in the East, a brief history of the wars of Islam with the Latin in Syria During the twelfth and thirteenth Centuries* (Beirut: Slim Press, 1968), p. 196.

(105) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ج 3 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ص 112 وما بعدها.

(106) قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى دراسة وثائقية (القاهرة: دار المعارف، 1977)، ص 91-93.

(107) بتلر، ص 260، 261؛ جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2000)، ص 8.

البيزنطي الإسلامي⁽¹⁰⁸⁾ والذين انضموا إلى الجيوش البيزنطية وشاركوا مشاركةً فعالة في الحرب ضد المسلمين، وكذلك استغلت أسماؤهم ولغتهم العربية، يقول الراوي: «وَكَانَ الْمَلْعُونُ فَصِيحَ اللِّسَانِ بِالْعَرَبِيَّةِ»⁽¹⁰⁹⁾، واستغلوا مظهرهم العربي: «وَيُشْبَهُ زَيْهَمُ زَيْ غَسَّانَ»⁽¹¹⁰⁾ في خداع المحاربين المسلمين من خلال أحداث السير، وهو الأمر الذي قد يكون انعكاسًا لما قام به بنو حبيب المرتدون في الحرب ضد المسلمين في القرن العاشر الميلادي، وكانوا زهاء عشرة آلاف فارس، ووجدوا صدرًا رحبًا من السلطات البيزنطية. وبحسب المصادر الإسلامية استغلوا معرفتهم السابقة بالعربية، وبطرق قتال العرب، وأيضًا بدروب الأرض الإسلامية في إلحاق أشد درجات الأذى بالمسلمين. كما كاتبوا بتشجيع السلطات البيزنطية إلى أقربائهم في بلاد المسلمين يحثونهم على الالتحاق بهم في بلاد الروم⁽¹¹¹⁾، ويذكرون لهم ما يتمتعون به من رعاية بيزنطية. وهو موقف يختلف كثيرًا عن موقف الأقباط المصريين المقيمين تحت الحكم البيزنطي وإن بدا دورهم باهتًا، إلا عند الحديث عن بعض المساعدة السرية من الرهبان الأقباط للعرب⁽¹¹²⁾. فلا نكاد نلمس أي لهجة عداة ضدهم على الإطلاق.

الخاتمة

السير الشعبية العربية بمنزلة شاهد على ذهنية المجتمع العربي، بخاصة في فترات التأزم الحضاري التي تعدّ مجالًا مهمًا لدراسة هذه الذهنية التي تتطلب سلاحًا نقديًا ثابتًا.

وكشفت سيرة فتوح مصر المحروسة وبصورة مدهشة عن كيفية ورود أحداث الصراع الإسلامي البيزنطي أثناء الفتح الإسلامي لمصر إلى الذاكرة، وماهية رؤيتها لبدائيات المجتمع المسلم الباكر في مصر والمجتمع الذي عاش في رحابه رواة السير الشعبية، وتمثل نمطًا من أنماط الذاكرة الاجتماعية، وإضافةً مهمةً لتوضيح هوية مصر الإسلامية بعد الفتح العربي لها.

كما ألفت ضوءًا مفعمًا بالخيال الخصب على بؤر جديدة لم تنتبه إليها مصادرنا التاريخية عكست رؤية الوجدان الشعبي الجماعي لصورة الآخر (البيزنطي) من المنظور الديني⁽¹¹³⁾.

وساعدتنا في التعرف إلى الموقف الذهني الإدراكي والأخلاقي والتخيلي والمعرفي من الآخر، ومعرفة مدى ما تختزنه الثقافة العربية الإسلامية من مواقف صريحة وتلقائية تجاه الآخر، لا سيما أنّها قدّمت في الوقت نفسه كثيرًا من المعلومات التي مرت بها المصادر التاريخية التقليدية المعاصرة عرضًا أو تجاهلتها تمامًا، وقدّمت معلومات أمكن تأكيدها من المصادر الإسلامية والبيزنطية.

(108) سيرة فتوح مصر تجعل من العرب المنتصرة ستمئة ألف، انظر: فتوح مصر المحروسة، ق 43، 44، 45، 46؛ فتوح البهنسا، ص 222، 223؛ أما سيرة الأميرة ذات الهمة ف «تجعل من العرب المنتصرة أربعين ألفًا وتأخذ أسلاب القتلى من كل من قتل من المسلمين»، انظر: سيرة الأميرة ذات الهمة، ج 3، ص 327؛ ج 4، ص 241؛ ج 7، ص 137.

(109) فتوح مصر المحروسة، ق 47.

(110) المرجع نفسه، ق 48.

(111) أبو سعدة، ص 320.

(112) للمزيد عن مساعدة الأقباط والرهبان للمسلمين، انظر: بتلر، الفصل السابع والعشرون، ص 461-454.

(113) أبو سعدة، ص 306.

تؤكد السيرة أنّ فتوح مصر لم تمرّ على الوعي الشعبي دون استجابة يقظة وانتباه واع بدور الشعب في تسجيل بطولات هذا الحدث، وهي قراءة تحتوي في عناصرها على مسائل أخرى شغلت الضمير الجمعي ووجدتها فرصةً ليطرحها في إطار رؤيته الشعبية للأحداث في سياق بحثه المستميت عن العناصر المنسية والناقصة والقلقة في الرواية الرسمية للحدث التاريخي.

تعدّ سيرة «فتوح مصر المحروسة» نصّاً يقع في منطقة الحدود بين التاريخ والأدب الشعبي، يمزج بين التاريخ والحكاية الشعبية، ويؤدي وظيفةً مهمةً في خدمة الباحثين في مجال الدراسات التاريخية، وفي مجال الأدب الشعبي على السواء⁽¹¹⁴⁾.

لم تنشأ سيرة فتوح مصر المحروسة من فراغ، بل هي تعبّر عن واقع مجتمعي، واتفاقها أو تناقضها مع المصادر التاريخية لا يقلل من ميزة التعبير عن الواقع؛ إذ كان الرواة الشعبيون واعين إلى درجة كبيرة بحقائق عصرهم المؤلمة، ومدركين هامش التحرك الذي يمكنهم أن يتحركوا فيه. وباختيارهم هؤلاء الأبطال التاريخيين برهنوا للطبقات الشعبية أنّ أسلافهم عرفوا رجالاً عظاماً حققوا انتصارات باهرةً على البيزنطيين، أي إنّ البطل المنقذ الذي تشده الطبقات الشعبية ربما يظهر لمواجهة العدوان الجديد البيزنطي/ الصليبي، مادام قد ظهر في السابق والانتصار الذي يحلم به الجميع من الممكن أن يتحقق مادام قد تحقق ذات يوم. وعاشت هذه السيرة الشعبية وغيرها من الملاحم العربية؛ لأنّها كانت هي التاريخ الذي يصدّقه آلاف وآلاف من الناس عامةً وخاصةً، والذي عاش ولا يزال يعيش عليه كثير ممن يفوقون قراءة الكتب العلمية عددًا وإيمانًا بصدق التاريخ.

References

المراجع

العربية

- إبراهيم، نبيلة. سيرة الأميرة ذات الهمة، دراسة مقارنة. ط5. القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 1994.
- ابن الأخوة، محمد بن محمد. معالم القرية في طلب الحسبة. تحقيق إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001.
- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد. المدخل إلى الشرع الشريف. القاهرة: دار التراث، د. ت.
- ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله. فتوح مصر والمغرب. تحقيق علي عمر. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2004.
- أحمد، إبراهيم كامل. «فتوح البهّسّا الغراء» كتاب من كتب المغازي الإسلامية. مجلة الفنون الشعبية. العدد 46 (كانون الثاني/يناير - آذار/مارس 1995).
- إسماعيل، يوسف. الرؤية الشعبية في الخطاب الملحمي عند العرب. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004.

(114) عبده قاسم، واقعة السلطان، ص 23؛ إروين، ص 25-44.

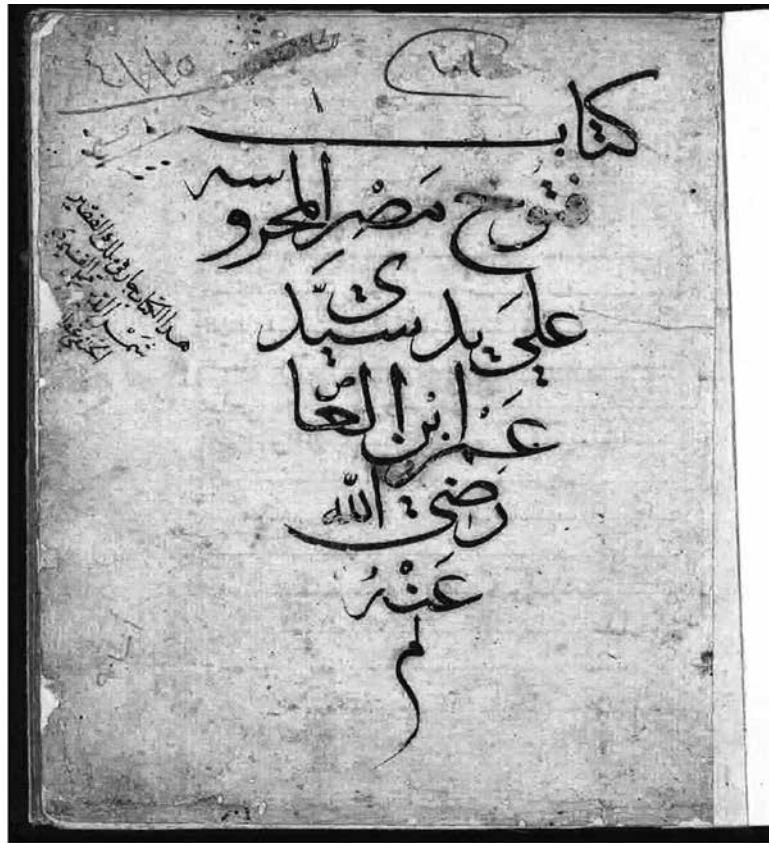
- بتلر، ألفريد. فتح العرب لمصر. ترجمة محمد فريد أبو حديد. ط 2. القاهرة: لجنة التأليف، 1946.
- البلوي، أبو محمد عبد الله. سيرة أحمد بن طولون. تحقيق محمد كرد علي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1999.
- التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد. البصائر والذخائر. تحقيق إبراهيم كيلاني. دمشق: دار أطلس، د. ت. الجزائر، محمد فكري. العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبي. سلسلة دراسات أدبية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
- جوليا براي (محرر). الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى آفاق المسلم. ترجمة عبد المقصود عبد الكريم. القاهرة: إصدارات المركز القومي للترجمة، 2015.
- حاتم الطحاوي (محرر). دراسات في تاريخ العصور الوسطى. القاهرة: دار عين، 2003.
- حرب، طلال. بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1999.
- حمود، ماجدة. صورة الآخر في التراث العربي. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010.
- الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ط 2. بيروت: دار صادر، 1995.
- الخضيري، محمد. المناظرة العجيبة، وقائع مناظرة الإمام الباقراني للنصارى بحضرة ملكهم. الرياض: دار الوطن للنشر، 2000.
- خورشيد، فاروق. معادن الجواهر جولة في التراث. ط 2. القاهرة: مكتبة الأسرة، 1999.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003.
- _____ . سير أعلام النبلاء. مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985.
- رمزي، محمد. القاموس الجغرافي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.
- رنسيمان، ستيفن. تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة السيد الباز العريني. بيروت: دار الثقافة، د. ت. سركيس، اليان. معجم المطبوعات العربية. القاهرة: مطبعة سركيس، 1928.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. القاهرة: المكتبة التجارية بمصر، 1908.
- شميس، عبد المنعم. «قصة البهنسا». مجلة الفنون الشعبية. العدد الأول (1956).
- الشيال، جمال الدين. مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2000.
- الصوري، وليم. تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة في ما وراء البحار). ترجمة سهيل زكار. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2003.

- عابدين، عبد المجيد. لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية. القاهرة: مطبعة الشبكي، 1964.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح. الظاهر بيبرس. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001.
- عاور، صلاح الدين. الرواية الشفوية وأهميتها في حفظ التاريخ. القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب، 1999.
- عبد القوي، أحمد. آثار وفنون البهتسا. سلسلة التراث. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005.
- العدوي، إبراهيم أحمد. ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1963.
- علي، علي السيد. بحوث في التاريخ الاجتماعي من العصر المملوكي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2014.
- عنان، محمد عبد الله. مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري. القاهرة: مكتبة الأسرة، 1999.
- عون، عبد الرؤوف. الفن الحربي في صدر الإسلام. القاهرة: دار المعارف، 1961.
- فرشوخ، أحمد. جمالية النص الروائي، مقارنة تحليلية لرواية «العبه النسيان». الرباط: دار الأمان للنشر والتوزيع، 1996.
- قاسم، قاسم عبده. أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى دراسة وثائقية. القاهرة: دار المعارف، 1977.
- _____ . بين التاريخ والفلكلور. ط 2. القاهرة: عين للدراسات والبحوث، 2001.
- _____ . واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني نهاية المماليك بين التاريخ والحكي الشعبي. القاهرة: عين للدراسات والبحوث، 2014.
- القرشي، عالي سرحان. الرواية والتاريخ. ضمن أبحاث ملتقى القاهرة الثالث للإبداع الروائي العربي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005.
- كاشف، سيدة إسماعيل. مصر الإسلامية وأهل الذمة. سلسلة تاريخ المصريين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.
- كاظم، نادر. تمثيلات الآخر، صورة الأسود في المتخيل العربي الوسيط. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004.
- كينيدي، هيو. الفتوح الإسلامية كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه. ترجمة قاسم عبد. القاهرة: عين للدراسات والبحوث، 2015.
- مجهول. سيرة فتوح البهنسا الغراء. تحقيق عمرو عبد العزيز منير. سلسلة الجوائز. القاهرة: هيئة قصور الثقافة، 2012.
- _____ . كتاب فتوح مصر المحروسة على يد سيدي عمرو بن العاص. مخطوط بدار الكتب والوثائق المصرية، رقم 100 الحسيني.
- المقرزي، أحمد بن علي بن عبد القادر تقي الدين. السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

- _____ . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.
- منير، عمرو عبد العزيز. «الفتح الإسلامي لصعيد مصر في الوعي المصري الشعبي قراءة في مخطوط فتوح البهنسا الغراء». ضمن أبحاث مؤتمر التاريخ الحربي عبر العصور، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 2012.
- _____ . الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين. ط 2. القاهرة: سلسلة مكتبة الأسرة، 2012.
- النجار، محمد رجب. الأدب الملحمي في التراث الشعبي. القاهرة: هيئة قصور الثقافة، 2007.
- هالدون، جون. بيزنطة في حرب 600-1453م. ترجمة وتعليق فتحي عبد العزيز محمد. الكويت: دار ناشري، 2011.
- هوروفقس، يوسف. المغازي الأولى ومؤلفوها. ترجمة حسين نصار. القاهرة: طبعة البابي الحلبي، 1949.
- الواقدي، أبو عبد الله. فتوح الشام. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.
- الوطواط، محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي. من مباهج الفكر ومناهج العبر. تحقيق عبد العال عبد المنعم الشامي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1981.
- ونتر، ميكل. المجتمع المصري تحت الحكم العثماني. ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 2007.
- يونس، عبد الحميد. الظاهر بيبرس في القصص الشعبي. القاهرة: دار القلم، د.ت.

الأجنبية

- Brett, G. «The automata in the Byzantine 'Throne of Solomon',» *Speculum*. vol. 29. no. 3 (July 1954).
- El-Cheikh, N. M. «Describing the other to get at the self: Byzantine women in the Arabic sources (8th-11th Centuries),» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*. vol. 40, no. 2 (1997).
- Georgius Monachus, *Chronicon*, C. De Boor (ed.). Leipzig: Teubner, 1904.
- Hentsch, Thierry. *L'orient imaginaire: La vision politique occidentale de l'Est méditerranéen*. Paris: Editions de Minuit, 1988.
- Paret, Ruidi. «Die legendare Futuh - Literatur, ein arabisches Volksepos La poesia epica e la sua formazione.» *Accademia Nazionale dei Lincei*, Atti 139 (1970).
- Skylitzes, John. *Synopsis Historiarum*, ed. J. Thurn, vol. V, Series Berolinensis, Berlin: CFHB, 1978.
- Stevenson, W. W. B. *The Crusaders in the East, a brief history of the wars of Islam with the Latin in Syria during the twelfth and thirteenth centuries*. Beirut: Slim Press, 1968.
- Sviri, S. «*Wa rahbābāniya tanibtada'uhā*: An analysis of traditions concerning the origin and evaluation of the Christian monasticism,» *Jerusalem Studies in Arabic and Islamic*. vol. 13 (1990).
- The works of Liudprand of Cremona*. F. A. Wright (English trans.). London/ New York: E. P. Dutton, 1930.



الورقة الأولى من مخطوط فتوح مصر المحروسة بدار الكتب المصرية برقم (١٠٠ الحسيني)



الورقة الثانية من مخطوط فتوح مصر المحروسة بدار الكتب المصرية برقم (١٠٠ الحسيني)